الباب التاسع

نماذج مختارة لخطوط بعض المحدِّثين

حفلت **بغداد** منذ أواسط القرن الخامس الهجري بعدد كبير من **المدارس والمعاهد المستقلة عن الجوامع**، واستمرت في الازدياد إلى سقوط بغداد في يد المغول في سنة (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، فقد وصلت مدارسها حوالي ٣٨ مدرسة منها ما أنشئ لمذهب واحد، ومنها ما أنشئ لأكثر من مذهب، ومنها للعلوم الأخرى غير علوم الدين.

وكانت بغداد حافلة علاوة على ما ذكر بدور القرآن ودور الحديث وحلقات المساجد وأماكن الدراسة كالمكاتب والكتاتيب والربط والخوانق ومجالس المناظرة **ومجالس الإملاء** والندوات الأدبية والتحدث في دور العلم وخزائن الكتب، ولعل أول من أحدث المدارس هو نظام الملك سنة ٤٥٧ هـ، وفي قول أنه قد سبقه المدرسة البنهفية بنيسابور، والمدرسة السعدية بنيت في عهد الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود وغيرهما.

وأشهر ما بني في القديم **(المدرسة النظامية)** ببغداد قرر فيها للفقهاء وشرع في بنائها في عام ٤٥٧ هـ وفرغت في عام ٤٥٩ هـ، وتوافد عليها الناس من المشرق والمغرب.

ومن المدارس المشهورة أيضًا **المدرسة المستنصرية**، جاء في وصفها في ترجمة بانيها المستنصر بالله الخليفة العباسي وبويع بالخلافة سنة ٦٢٣ هـ: «له الآثار الجليلة منها وهي أعظمها المستنصرية وهي أعظم من أن توصف وشهرتها تغني عن وصفها . . .»، وقال في (الآداب السلطانية): «من أجلِّ فضائله التي لم يسبقه إليها أحد أنه أمر بإنشاء مدرسة على شاطئ دجلة وجعلها **وقفًا على المذاهب الأربعة** ووقف عليها وقوفًا حاصلها نحو ٦٠ ألف دينار». وقال محمد شاكر الكتبي في (فواته): «وبنى على دجلة من الجانب الشرقي فيما يلي دار الخلافة مدرسة ما بني على وجه الأرض مثلها، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل بيمارستانًا كبيرًا، وبنى فيها مطبخًا ومزملة للفقراء، ورتب لهم حمامًا وبالحمام قَوَمه»[١].

وعلى الرغم مما شهدته هذه الحقبة من فتن وحوادث كما بيّنا في هذا الباب، امتازت في الوقت نفسه بشيوع العلم ومدارسه المتعددة، وظهور أشهر علماء المسلمين ومصنفيهم، وأشهر المصنفات على حد سواء. وسنتعرض لبعض المدارس في الشام وبغداد.

أما المدارس فهي أكثر من أن تحصى سواء من حيث حجمها أو تخصصاتها أو مذاهبها. **المدارس في بلاد الشام** انقسمت إلى أقسام عدة حسب تخصصاتها ومواقعها والعلوم التي تدرس فيها على النحو الآتي: ١ - دور القرآن الكريم. ٢ - **دور الحديث الشريف**. ٣ - دور الحديث والقرآن. ٤ - المدارس الفقهية. ويتصل بذلك الزوايا والخوانق ونحوها.

١ - البغدادي، تقي الدين أحمد بن محمّد بن عليّ المقرئ الأدَمي الحنبلي: المنور في راجح المحرر، تحقيق د. وليد عبدالله المنيس، ص ٢٣٠.

ظل التدريس قائمًا في الجامعة المستنصرية أربعة قرون منذ أن افتتحت في سنة (٦٣١ هـ/١٢٣٣م) حتى سنة (١٠٤٨ هـ/١٦٣٨م)، وإن تخلل ذلك فترات انقطاع، كانت الأولى في أثناء **الاحتلال المغولي لبغداد سنة (٦٥٦ هـ/١٢٥٨م)** وتوقفت الدراسة فيها قليلاً، ثم عاد إليها نشاطها من جديد؛ حيث استؤنفت الدراسة في السنة نفسها، وظلت الدراسة قائمة بالمستنصرية بانتظام بعد سقوط بغداد نحو قرن ونصف من الزمن.

المدرسة المستنصرية

بناها الخليفة المستنصر بالله العباسي، وكمل بناؤها سنة ٦٣١ هـ، وافتتحت في تلك السنة، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على **المذاهب الأربعة**: من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب فقهي، وشيخ للحديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى، والنفقة بما فيه كفاية وافرة لكل أحد، ووقفت كثير من الكتب عليها.

المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة الحكيم المستنصر بالله العباسي (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ولا تزال آثارها قائمة على شاطئ دجلة. وكان يدرس بها **العلوم الدينية** والتاريخ والطب والحساب والمساحة. وكان يتصل بها صيدلية ومستشفى. وقد بلغ عدد الفقهاء المدرسين بها ثلاث مئة تجري عليهم الأرزاق.

كانت مكتبة المدرسة المستنصرية زاخرة بأعداد ضخمة من المجلدات النفيسة والكتب النادرة، بلغ تعدادها ٤٥٠ ألفًا وتعد مرجعًا للطلاب. كما قصد المكتبة الكثيرون من العلماء والفقهاء وترددوا عليها وأفادوا من كنوزها العلمية والأدبية نحو قرنين من الزمن. وقد نقل الخليفة نفائس الكتب من مختلف العلوم والمعارف ما يقدر بـ٨٠ ألف مجلد بحسب الصنوف. عاث المغول بنفائسها في أثناء هجومهم المشؤوم على بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

الجامع الأموي

وهـــو أشهر وأكـبر مؤسسة تعليمية في ذلـك الوقت، فقد كان بـه عدد من الحلقات التي تشتغـل بالعلم وتهتم به، وفيـه حلقات كثيرة لتدريس القرآن الكريم وعلومه، **والحديث الشريف وعلومه**. وبه عدد من المدارس هي: الغزاليـة، والأســـديـة (شافعيـة)، والمنجـــائيـة (حنبليـة)، والقوصيـة والسفينـة والمقصـورة الكبـيرة (ثلاثتهـن حنفيـة) والزاوية (المالكية).

أمـا فـي **الشـام** فـإن المدارس والجوامـع والزوايـا قـد كـثرت؛ لأن رئاسة العلم ومنارته قد **انتقلت من بغـداد** بعـد عبـث التتار بهـا وقتل العلمـاء وتشريدهم منها ومن حولها مـن البلـدان، **وأصبحـت دمشـق والقاهـرة** تتجاذبـان الرئاسـة والسيـادة ومـن تلـك المدارس والجوامع في الشام:

- المدرسة الأسدية الشافعية الحنفية.
- المدرسة الأتابكية الشافعية بصالحية دمشق.
- المدرسة الأصفهانية.
- المدرسة الإقبالية التي افتتحت سنة ٦٢٨ هـ.
- المدرسة **العادلية** الكبرى(انظر الصفحة المقابلة) بدمشق:

المنسوبة إلى الملك العادل محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي المتوفى سنة ٦١٥ هـ .

- المدرسة الصلاحية ببيت المقدس:

وهي التي أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي فاتح بيت المقدس- رحمه الله- المتوفى سنة ٦٥٩ هـ ، وقد كانت كنيسة من زمن الروم تعرف بقبر حنة (أم مريم عليها السلام) كما يقال.

- المدرسة الجوزية:

وقـد أنشأها محيـي الدين ابن الشيخ أبي الفرج **عبدالرحمـن بن الجوزي**- رحمه الله- ت: ٦٥٦ هـ، وهناك عدد كبير من المدارس المنتشرة في الشام كالجادلية، والأوحدية، والمعظمية، والميمونية، والقيمرية، وغيرها.

مسجد الصحابي الجليل **أبو الدرداء** ﷺ قاضي دمشق. وقد عدّ (بقي بن مخلد) لأبي الدرداء في مسنده (١٧٩) حديثًا، منها حديثان متفق عليهما، وانفرد البخاري بثلاثة أحاديث، ومسلم بثمانية أحاديث، كما روى له الجماعة في كتبهم. وقد خرج أبو الدرداء إلى الشام بعد وفاة النبي ﷺ، بعد اتساع الفتوحات الإسلامية، حيث أمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أبا الدرداء بالخروج إليها ليعلّم الناس القرآن، ويُفقّههم في الدين، ففعل. وفي خلافة عثمان ابن عفان ﷺ، ولاّه معاوية بن أبي سفيان ﷺ قضاء دمشق.

تقع **المدرسة العادلية** في دمشق القديمة، بين بابي الفرج والفراديس، مقابل المكتبة الظاهرية. وتنسب للملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، والد الملوك الأيوبيين وأخي صلاح الدين الأيوبي.

- ففيها كان يقيم (أبو شامة) وفيها ألّف (الروضتين).
- وفيها أقام ابن خلّكان وألّف (وفياته).
- وفيها درس ابن مالك صاحب (الألفيّة).
- وفيها نزل ابن خلدون يوم حلّ بدمشق.
- وفيها درس عشرات العباقرة الآخرين.

يعتمد **الخط العربي** على قواعد خاصة تنطلق من التناسب بين الخط والنقطة والدائرة، وتُستخدم في أدائه فنيًّا العناصر نفسها التي تعتمدها الفنون التشكيلية، وقد أظهر العرب منذ البداية رغبة عارمة في إصلاح خطهم وتجميله؛ لكي يصبح الأداة اللائقة لكتابة آيات الذكر الحكيم، وهكذا فإن الخط العربي منذ مرحلة مبكرة من تطوره أصبح يتسم بالجلال من خلال تحوله إلى الطريقة التي يكتب بها القرآن الكريم. وعلى هذا المنوال أخذ هذا المسلك مع العلوم الأخرى ولا سيما العلوم الشرعية؛ فكتابة الحديث النبوي، حيث تعقد المجالس العلمية؛ لإملاء أنواع شتى من العلوم والمعارف، **فالمحدِّث يملي حديثًا**، والفقيه يملي فقهًا، واللغوي يملي لُغةً،... وهكذا، وتلامذتهم يكتبون عنهم ما يملون، مما جعل كتب الإملاء متنوعة، قال حاجي خليفة: في «**الأمالي** جمع الإملاء، وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته **بالمحابر والقراطيس** فيتكلم العالم بما فتح الله -سبحانه وتعالى- عليه من العلم ويكتبه التلامذة فيصير كتابًا، ويسمونه الإملاء والأمالي»[١]. وقد درج بعض المحدِّثين على أن يجعلوا في كل أسبوع يومًا للإملاء وبقية الأيام للقراءة. لذا «يعد معرفة أنواع الخط العربي من المتطلبات التي تعين المحقق على ضبط النصوص، وعدم الوقوع في التحريف والتصحيف. ولقد اهتم المحدِّثون بالخط، ودعوا إلى العناية به، وسعوا جادِّين من أجل تحسينه، ولعل من أفضل وسائل العناية بالخط وتحسينه الاهتمام بأدوات الكتابة وآلآت النسخ»[٢].

قال أبو بكر الخطيب: «ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد، ثم الحبر خاصة، دون المداد؛ لأن السواد أصبغ الألوان، والحبر أبقاها على مر الدهور، وهو آلة ذوي العلم، وعدة أهل المعرفة»[٣]. قال ابن قتيبة: قال إبراهيم بن العباس لغلام يكتب بين يديه: «ليكن قلمك صلبًا بين الدقة والغلظ، ولا تبره عند عقدة، فإن منه تعقيد الأمر، ولا تكتب بقلم ملتو، ولا شق غير مستو، فإن أعوزك القلم الفارسي والبحري واضطررت إلى الأقلام النبطية، فاختر منها ما ضرب إلى السمرة، واجعل سكين قلمك أحد من الموسى، ولا تبر به غيره، وتعهده بالإصلاح في كل وقت، وليكن مقطك أصلب الخشب؛ ليخرج القط مستويًا، وابر قلمك بين التحريف والاستواء، وليعتقد فكرك أن وزن الخط وزن القراءة، أجود القراءة أبينها، وأجود الخط أبينه»[٤]. أنشد أبو البيان التنوخي في القلم:

و**أطلسَ** يحكي رأسه ناب أطلسَ ... ألمَّ به السكين في موضع الذبح
مُوشَّى كأن النحل حاكت قميصهُ ... بأرجلها حتى تعرى من القبح
تراه مُكبًّا يجتني حِندِس الدجى ... ويطرحه نثرًا على صفحة الصبح

١- كشف الظنون، ج ١، ص ١٦١.
٢- د. موفق بن عبدالله بن عبدالقادر، توثيق النصوص وضبطها عند المحدثين، ص ٢٣٥، المكتبة المكية.
٣- الجامع لأخلاق الراوي والسامع: ٢٤٩/١ - ٢٥٠، السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص ٢٥٦.
٤- السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٤٧ - ١٤٨.

أقسام طرق نقل الحديث وألفاظها

أولًا: السماع من لفظ الشيخ

ثانيًا: القراءة على الشيخ (العرض)

ثالثًا: الإجازة

رابعًا: المناولة

خامسًا: المكاتبة

سادسًا: الإعلام

سابعًا: الوصية

ثامنًا: الوجادة

حدثنا أبو حفص عمر بن المبارك بن أحمد النعالي من لفظه ببغداد أنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن عبد الواحد الشيباني أنا أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي أنا محمد بن عبد الله بن المطلب الكوفي ثنا أبو سعد داود بن الهيثم بالأنبار ثنا المبرد قال: «رأيت الجاحظ يكتب شيئًا فتبسم فقلت ما يضحكك فقال إذا لم يكن **القرطاس** صافيًا و**الحبر** ناميًا و**القلم** مؤانيًا والقلب خاليًا فلا عليك أن تكون عانيًا». السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٦٣.

مداد المحابر طيب الرجال وطيب النساء من الزعفران
فهذا يليق بأثـــــواب ذا وهذا يليق بثوب الحصـــان

قال ياقوت بن عبدالله المقتدري في دار الخلافة (بغداد) يقول سمعت الشافعي -رحمه الله- يقول: «لولا المحابر لخطبت الزنادق على المنابر». وقال سيار بن خضر البغدادي بحلب: «رأيت في النوم كأني وجماعة من أصحاب الحديث نكتب الحديث ومع كل واحد منا محبرة يخرج من رأسها سراج يضيء لصاحبه ونحن نكتب على هذا الحديث فجعل سراج كل محبرة ينطفىء حتى بقي سراج محبرتي فقلت لهم: اسرجوا لا تنطفئ هذه وتبقى بلا سراج فعلمت قصد أصحاب الحديث». وأنشد أبو عبدالله الفقيه المراغي الشافعي رحمه الله:

إذا رأيت شباب الحي قد نشؤوا ... لا ينقلون قلال الحبر والورقا
ولا تراهم لدى الأشياخ في حلق ... يعون من صالح الأخبار ما اتسقا
فدعهم عنك واعلم أنهم همج ... قد بدلوا بعلو الهمة الحمقا[1].

صفحتان (مصورتان) من مصطلحات المحدِّثين والنَّسَّاخ[2]

سادساً ـ المُجَلَّد:

(أ) لُغةً: اسم مفعول مُشتقٌّ من الجِلْد وهو غشاء جَسَد الحيوان، والجَمْعُ جُلُود، وقد يُجْمَعُ على الجُلاَلِ، مِثْلُ جَمَل وجُمُول واجْمَال، والجِلْدَةُ أخصُّ من الجِلْد[1].

وَجَلَّدَ الكتابَ: ألبَسَهُ الجِلْد[2].

(ب) وفي اصطلاح المحدِّثين: يُطْلِقُ المحدِّثُونَ لَفْظَ مُجَلَّدٍ أحياناً ويريدون به إمّا: المعنى اللُّغوي، أو أنَّ المصنَّفَ الواحدَ قَدْ قُسِّمَ إلى عِدَّةِ مُجَلَّدات.

(ج) عدد أوراق المُجَلَّد: قد يُقَسِّمُ المحدِّثُونَ الكتابَ الواحدَ إلى عِدَّةِ مُجَلَّداتٍ خديثيَّةٍ.

فمنهم مَن جَعَلَ المجلدة الواحدة عَشْرَ وَرَقَاتٍ ومنهم مَن جَعَلَ المُجَلَّدةَ عشرةَ أجزاءٍ حديثيَّةٍ، عددُ أوراقِ الجُزْءِ منها عشرونَ ورقة[3].

وكتاب «معجم الطَّبراني» لَسْنَةَ المصنَّفُ إلى «أربعةٍ وأربعين جُزْءاً» قال الحافظُ ابنُ حَجَر: «في أربع مُجَلَّدات»[4] وعلى هذا فيكون في كُلِّ مُجَلَّدٍ أحد عَشَرَ جُزءاً.

(١) انظر: المصباح المنير: ١٠٤/١، لسان العرب: ١٢٤/٣ مادة (جلد)، وتاج العروس: ٣٢٢/٢ مادة (جلد).
(٢) أساس البلاغة: ص ٩٩.
(٣) كما في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، انظر: ترجمة «علمان بن عطاء» المقدمة: ص: ج.
(٤) الدرر الكامنة: ٤١٧/٢.

٢٣٠

عِلماً بأنَّ النُّسخةَ المحفوظةَ بدار الكُتب الوطنية بتونس برقم (١٢٩٩١٠) تقع في «أربعةٍ وأربعين جُزْءاً» وكُلُّ جُزْءٍ يَقَعُ في إحدى عشرة ورقةً من قِسمها وَرَقَةُ السَّماعات.

سابعاً ـ الطَّبَقة:

تَرِدُ في بعض التَّراجم لفظة «طَبَقَة» قال السَّمْعاني في ترجمة شيخه «أبي عَبْد الله الحسين بْن أحمد بْن عليٍّ الشَّيْحي»: «... وَرُبَّما يَكْتُبُ في كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ طَبَقَاتٍ مِنَ الكَوَافِي، وهذا عَجِيبٌ ما رأيتُهُ»[1].

وقال ابنُ النَّجَّار في «ذيل تاريخ بغداد» في ترجمة «أبي سَعْد السَّمْعَانِيّ»: «كَتَبْتُ أسماء تصانيفه من خطِّه: «الذَّيل على تاريخ الخطيب» أربعمائة طَبَقَة...

«تاريخ مَرْو» خمسمائة طَبَقَة...

«معجم شيوخه» ثمانون طَبَقَة...

«الإملاء والاستملاء» خمس عشرة طَبَقَة...

«الأنساب» ثلاثمائة وخمسون طَبَقَة...[2].

«قِرطُ القِرام إلى ساكني الشام» خمس عشرة طَبَقَة»[3].

(١) «المنتخب من معجم شيوخ السَّمعاني» الترجمة رقم: ٢٩٧، ـ تحت الطبع بتحقيقنا ـ التحبير: ٢٢٣/١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤٦٠/٢٠ ـ ٤٦١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٦١/٢٠.

٢٣١

١- السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٥٣.
٢- د. موفق بن عبدالله بن عبدالقادر: توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين، ص ٢٣٠ - ٢٣١، المكتبة المكية.

من الفنون الحضارية التي تقدمت -بفضل الله تعالى-؛ ثم بفضل الحرص على صيانة مخطوطات المصاحف فن **تجليد المخطوطات** الذي ازدهر على أيدي المسلمين على وجه الخصوص لعنايتهم الفائقة **بغلاف** المصحف الشريف، وكتب الحديث النبوي، سواء من حيث الصنعة والزخرفة أو الرسم الكتابي، مما حدا بالأوروبيين إلى تقليده. ومن أبرز معالم التجليد الإسلامي التي استخدمها الأوروبيون في عصر النهضة الأوروبية **لسان الغلاف** الذي استعمل لحفظ أطراف المصحف الخارجية من جهة، ولتعيين مواضع الوقوف بعد القراءة من جهة أخرى.

وفي الصفحة أنموذجين من نماذج اهتمام علماء الحديث النبوي في هذا الشأن، الأول: لابن عبدالهادي في كتاب (الإلمام بأحاديث الأحكام) للإمام ابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ). وهو بخط الحافظ أبي عبدالله ابن عبدالهادي (ت: ٧٤٤هـ).

والآخر كتاب (القراءة خلف الإمام) للإمام البخاري، بخط الحافظ الكبير الإمام أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المِزِّي (ت: ٧٤٢ هـ).

الدارقطني

كتاب الكُنى والأسماء للإمام مسلم بن الحجَّاج النيسابوري، بخط الحافظ الدارقطني(ت: ٣٨٥ هـ).

قطعة من كتاب (الكُنى والأسماء) للإمام مسلم بن الحجَّاج النيسابوري(ت:٢٦١هـ)رحمه الله، محفوظة في مكتبة شهيد علي بتركيَّا برقم(١٩٣٢) .

ورد على طُرَّتِهَا التصريحُ بأنها **بخط الحافظ الدارقطني** (ت: ٣٨٥هـ).

• وصفها الدكتور/ عبدالرحيم بن محمد القشقري في طليعة تحقيقه لكتاب الكُنى بقوله:

ثانيها-أي ثاني النُسخ-: نسخة (شهيد علي) بتركيا تحت رقم(١٩٣٢) وبخط الإمام الدارقطني كما صرَّح به الحافظ ابن حجر في حاشية الورقة ٥٢ من النسخة،

ومقاس أوراقها(١١X١٧،٥ سم وعددها ٦٢ ورقة).

قلت: وتجدون في اللوحة (٢/ب) الآتي: (الكُنى لمسلم بخط الدارقطني) ثم كُتب بجانبه بخطٍ مغاير: هذا خط شيخ الإسلام ابن حجر -رحمه الله تعالى-.

• **فائدة:** وممن له عناية بخط الإمام الدارقطني: أبو الحسين ابن الطيوري(ت: ٥٠٠ هـ) ببغداد، والذي وصفه السِّلَفي بقوله: «هو محدث مفيد ورع كبير، لم يشتغل قط بغير الحديث، وحصل ما لم يحصله أحد من كتب التفاسير والقراءات واللغة، والمسانيد والتواريخ والعلل والأدبيات والشعر، كلها مسموعة». ا. هـ من سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٢١٥).

فقد نقل الذهبي في ترجمته: (قال ابن سكرة: ذكر لي شيخنا أبو الحسين - أن عنده نحو ألف جزء بخط الدارقطني!) ا.هـ من المصدر السابق.

الخطيب البغدادي

رسالة الإمام مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ) بعنوان: رجال عروة ابن الزبير، بخط (الخطيب البغدادي ت: ٤٦٣ هـ)

من المجاميع العميرية المحفوظة في المكتبة الظاهرية بالشام -فرج الله كربة أهلها-.

وقد تضمن المجموع رسالة للإمام مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ) بعنوان: رجال عروة بن الزبير، (بخط الخطيب البغدادي). وتبدأ الرسالة من صفحة (١٤٠) إلى (١٤٧).

- ورد في صفحة (١٣٩) في أسفل الصفحة تقريبًا مايلي:

«خط الإمام الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب قدس الله روحه ونور ضريحه» ا.هـ

المؤلف أمام المكتبة الظاهرية في (دمشق القديمة) سنة ١٤٢١ هـ

تُعد **المكتبة الظاهرية** في دمشق من أغزر المكتبات في العالم الإسلامي لما تضمه بين جنباتها من إرث علمي عظيم من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب في العلوم والفنون الإسلامية. وقد أنشئت المكتبة في حي باب البريد في مدينة دمشق القديمة قبالة المدرسة العادلية الكبرى سنة ٦٧٦هـ. وتُسمَّى حاليًا دار الكتب الوطنية وتعود ملكيتها إلى وزارة الأوقاف في الجمهورية السورية، ولقدتسنى لي الوقوف عليها قبل عقدين من الزمن -كما هو مرفق في هذه الصفحة- وكانت في الأصل دارًا للعقيقي المتوفى سنة ٣٦٨هـ ثم تولى الملك السعيد ابن الملك الظاهر بيبرس البندقداري بناء التربة والمدرسة الظاهرية فيها بعد وفاة أبيه سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٦م. ونقلت جثمانه المدفون في قلعة دمشق إليها. ثم أنشئت هذه المكتبة سنة ١٢٩٦هـ.

ابن الجوزي

سُنن الترمذي بخط الشيخ المحدِّث الفقيه المؤرخ أبي الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي ت: ٥٩٧ هـ.

هـذه النسخة من محفوظات مكتبة (لا له لي) بتركيا، تحت رقـم(٤٦٣). وقـد ورد التنصيص على كونها بخط ابـن الجوزي فـي أعلى طُـرّة غـلاف النسخة، وكذلك في اللوح قبل الأخير وهو (٣٠٥/ب) حيثُ ورد فـي آخر النسخة الآتي: (فرغ من كتابته عبدالرحمن ابـن علي بن محمد بن الجوزي في يوم الأربعاء عاشر ربيع الآخر سنة ستة وثلاثين وخمس مئة بعد أن سمعه جميعـه على الشيـخ أبي الفتـح الكروخـي...). قلتُ: والشيـخ المُسمـع الكروخـي(ت: ٥٤٨هـ) فـي مكة - شرفهـا الله تعـالى- وهـو مـن أشهـر المعتنـين بسُنَن الترمـذي فـي الأعصـار المتأخـرة، وكتـب نسخةً من الكتاب من رواية أبي العبّاس المحبوبي(ت: ٣٤٦هـ).

- وقد ذُكر في ترجمة (الكروخي) أنه كتب نسخًا من جامع الترمذي، قال ابن الجوزي: (كان يكتب نُسخًا لجامـع الترمذي ويبيعها فيتقوت ويأكل من ذلك،وكتب نسخـةً فوقفها)ا.هـ من مشيخة ابن الجوزي (ص٩٥). وقد وجدت نسخة كاملة من جامع الترمذي بخط الكروخي، وهي من محفوظات مكتبة باريس الوطنية برقم(٧٠٩).

وقد وصفها (ابن دقيق العيد) بأنها عمدة المتأخرين. ينظر النكت للزركشي: (٢/ ٤٣١)، وينظر ما كتبه فـي وصف هذه النسخة الدكتور/خالد الدريس فـي أطروحته للدكتوراه بعنوان: (الحديث الحسن لذاته ولغيره دراسة استقرائية نقدية) ص:٣/ ١٠٢١.

المِـزِّي

كتـاب (القراءة خلـف الإمام) للإمام البخاري، بخـط الحافظ الكبير الإمام أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المِزِّي ت: ٧٤٢ هـ.

• نسخة خطيَّة مـن كتاب (القراءة خلف الإمام) للإمام البخاري، محفوظة في مكتبة فاتح بالأستانة بتركيا برقم (١١٣١)، وهـي نسخـةٌ نفسيـة، عليها خطـوط جمع من العُلماء. وقد جاء خط الحافـظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي فـي اللـوح (٤٠/ب) إلى اللـوح (٤١/ب)، وذلك بكتابته السماعات على النسخة.

• ومـن العجيـب أنه كان ممـن سمع الكتـاب على الإمام المِـزِّي: صهره علـى ابنته الإمـام ابن كثـير (ت:٧٧٤ هـ) وزوجتـه الحافظة لكتاب الله /زينب بنـت يوسف المِزِّي! فقد جاء في اللـوح(٤٠/ب) بخط الحافظ المزي مايلي: «سمـع كتاب القراءة خلـف الإمام للإمـام البخاري على كاتـب السمـاع يوسف بن الزكـي عبدالرحمن بن يوسف المِـزِّي ابنته زينـب وزوجها الفقيه الإمـام العالم الفاضل عماد الدين أبوالفضل إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي بقراءته في مجلسين...».

• وهذا من توفيق الله -جل وعلا- للعماد ابن كثير أن وفـق بتتلمـذه على الحافـظ الكبـير البارع أبـي الحجاج المِـزِّي ومصاهرته على ابنته الحافظـة الشيخة (زينب) رحمها الله.

ابن عبدالهادي

كتاب الإلمام بأحاديث الأحكام للإمام ابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ). وهو بخط الحافظ أبي عبدالله ابن عبدالهادي (ت: ٧٤٤هـ)

هـذه النسخـة مـن نفائس النُسـخ الخطيـة المكتشفة مؤخـرًا. لكتـاب (الإلمام بأحاديث الأحكام) للإمام ابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢ هـ).

وهي بخـط الحافظ أبي عبـدالله محمد بن أحمد بـن عبدالهادي (ت:٧٤٤هـ) صاحـب كتاب (المحرر في الحديث)، والمحـدث المعروف، وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) -رحمه الله-.

وهذه النسخة محفوظة في (مكتبة كوبريلي) بتركيا برقم (٢٥٠).

• تحصـل على هـذه النسخة النفيسة زميلنا الغـالي أ. عبدالله العوبل عند بدايـة دراستـه الجامعية عـام ١٤٢٨هـ ولم تطبـع آنئذ، ثم يسـر الله للباحث: محمـد خلوف العبـدالله، بتحقيق الكتـاب وإخراجه عن هذه النسخـة في حُلَّةٍ قشيبة. وصدر تحقيقه عن دار النوادر عام ١٤٢٤هـ، فجزاهُ الله خير الجزاء.

• وتجدر الإشارة إلى إن الحافظ ابن عبدالهادي -رحمه الله- على مشاركته فـي عدد من العلوم كالفقه والعربية وغيرهـا، إلا أنه قد تميَّز بجودة تحريراته العلميـة في الحديث خاصّـة، ومؤلفاته الحاضرة لدينا خـير شاهد على ذلك؛ قـال عنه الصفـدي: «لو عُمِّرَ لـكان عجبًا فـي علومه، ونقطه البـدر طربًا منه بنجومـه، ولكـن اجتُثّ يانعًا، ولم يجد لـه من الحمام مانعًا.. ثُـم قال: كان من أفـراد الزمـان، رأيته يوافق شيخنا جمـال الدين المِزِّي، ويرد عليـه في أسماء الرجـال، واجتمعـت به غـير مرة، وكنـت أسألـه أسئلة أدبيـة وأسئلـة عربية، فأجـده فيهـا سيـلاً يتحـدر، ولو عاش كان عجبًـا» اهـ . من أعيـان العصر (٤/٢٧٥) ط. دار الفكر.

• قلتُ: وهو مع هذا قد توفي وهو على باب الأربعين من العمر، ولا غرو أن يكون لديه هـذا التميز في الناحية العلمية؛ فقد حصَّـل واجتهد وبحث وحرَّر وتخرج علـى ثلة من أعلام عصـره كالحافظ البارع أبي الحجاج المِـزِّي وشيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمهم الله).

الذهبي

كتاب (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) بخط الحافظ الكبير شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني ت: ٧٤٨ هـ .

• نسخة في غاية النفاسة من المعلمة والموسوعة التاريخية الكبيرة الموسومة بـ (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)، للإمام الحافظ المؤرِّخ الكبير/ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي التركماني (ت: ٧٤٨هـ) بخطه.

ويمثل الموجود من التاريخ بخط الذهبي الجزء ١٣ و ١٤ ، وأصل النسخة في مكتبة (أيا صوفيا) بتركيا برقم (٣٠١٣) و (٣٠١٤).

• انظر تصريح الذهبي باسمه في خاتمة النسخة، في الجزء ١٤ الصفحة (٣٥٥) مايلي:

«كتب هذا المجلد والذي قبله داعيًا الله(..) بالرحمة والرضا محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي غفر الله له ولوالديه» ا. هـ.

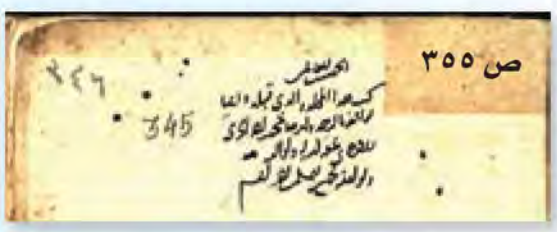

• ورد بأوضح منه في الصفحة (٣٥٤) في الجزء ذاته مايلي:

« فرغت منه في (..) الآخرة سنة أربع عشرة وسبع مئة، كاتبه: محمد بن أحمد بن عثمان » ا.هـ ومابين المعقوفتين لعلها (جماد).

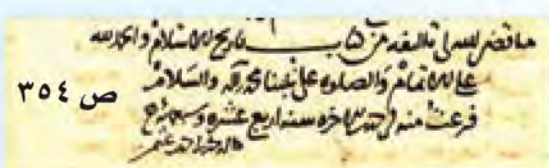

وفي المجمل فإن (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) أكبر كتب الإمام الذهبي وأشهرها، حيث تناول فيه تاريخ الإسلام من الهجرة النبوية حتى سنة ٧٠٠ هـ، وهي حقبة زمنية طويلة مدتها سبعة قرون.

السيوطي

كتاب (الأزهار الغضّة في حواشي الروضة) بخط الشيخ الجليل والعالم الموسوعي جلال الدين السيوطي رحمه الله (ت: ٩١١هـ).

نسخة خطية من كتاب (الأزهار الغضّة في حواشي الروضة) لـ (جلال الدين السيوطي ت: ٩١١هـ) -رحمه الله-.

وهي تعليقات السيوطي على جُزءٍ من كتاب (روضة الطالبين) للإمام النووي(ت: ٦٧٦هـ)، وقد ذكر بعضُ الباحثين أن الأقرب في هذه التعاليق أنها

- مسودةٌ ولم تبيَّض بَعْدُ، وهو رأيٌ وجيه لما يُلاحظ في النسخة من هوامش وإلحاقات وبعض البياضات.
- والنسخة محفوظة في المكتبة الأزهرية بالديار المصرية -حرسها الله- برقم (٥٧٤٥٢).
- ورد في صفحة عنوان المخطوط بخطٍ مغايرٍ مايلي: «هذا الجزء بخط مؤلفه الإمام السيوطي رحمه الله ونفع به آمين،(..) كاتبه أحمد عمر المحمصاني الأزهري ١ ذو القعدة ١٣٢٢هـ» ا.هـ
- ذكر أ. عبدالله العوبل: إن الشيخ أحمد بن عمر المحمصاني (ت: ١٣٧٠هـ) كان أمين المكتبة الأزهرية، وهو من آخر تلاميذ محمد عبده، كما تتلمذ على غيره من علماء الأزهر، له عدد من المؤلفات، طبع منها كتابه: (تحذير الجمهور من مفاسد شهادة الزور) بتحقيق: الشيخ رمزي سعدالدين دمشقية، وطبع في الجزء الثاني من لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام، ورقم الرسالة(١١). وقد ترجم المحقق للشيخ المحمصاني ترجمة جيدةً من عددٍ من المصادر والمجلات العلمية.
- اطلع أ. العوبل، على تعليقات المترجم في بعض المخطوطات - في هذا الصدد- وهي تدل في مجملها على عنايته وتجويده في هذا الباب. كان من ضمنها تعليقاته على النسخة الأزهرية النفيسة جدًّا من كتاب (الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي)، وعلى هوامشها نقولاتٍ متوافرة من كتاب (سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود)، و(التمييز في أسماء الرواة) للإمام البارع الحافظ الكبير/ أحمد بن شعيب النسائي -رحمه الله-(ت: ٣٠٣هـ)، وكتاب النسائي في حكم المفقود، وكانت هذه التعليقات بخط الإمام ابن دقيق العيد(ت: ٧٠٢هـ) وعلاء الدين مغلطاي(ت: ٧٦٢هـ)، وقد استفاد أ. عبدالله العوبل كثيرًا من هذه الدرة النفسية في رسالته للماجستير عن الإمام النسائي من خلال مجالستي معه. رحم الله هذه القمم الشماء وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

هكذا انصرف همّ **علماء الحديث النبوي** للرحلة في طلب العلم والإسناد العالي لحفظ سُنَّة النبي ﷺ، فهذه الرحلات المباركة مدت لنا جسورًا للعبور نحو أجنحة السفر التي تحملنا عبر الفيافي والسهول والقفار تارة، وعبر البحار والأنهار تارة أخرى مخترقة حُجُبَ الزمان وأفق المكان يسافر فيها طالب العلم من بلد إلى آخر ليجلس بين يدي أحد العلماء الكبار ليأخذ عنه حديثًا أو حديثين لا يجدهما عند غيره من العلماء، فقد أنفق (ابن شهاب الزهري) ما عنده في طلب الحديث، وكان عمله يلهيه عن أهله، حتى إن زوجته قالت: والله، لهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر، وأنفق (ابن المبارك) في طلب الحديث أربعين ألف درهم، حتى لم يبقَ له نعلٌ، فكان يمشي حافيًا. بينما ارتحل محدِّث الأندلس الكبير (بقي بن مَخلد) من بلاده ماشيًا نحو المشرق طلبًا للعلم ولقاء المحدِّثين الكبار، وفي كتاب (الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي) يقول الشيخ أبو غدة رحمه الله عنه: «وهذا الكتاب نافع مهماز للمتخلفين عن الرحلة، فاقرأه لعلك ترحل. وهو كتاب رفيع القدر ترى فيه العجب العجاب من أمر علماء المسلمين، وشدّة حرصهم على العلم والإسناد العالي في الحديث النبوي». ولعل ما ذكرناه في ثنايا هذا الأطلس قد غطى شيئًا من مساحة جهد هؤلاء الأعلام الأفذاذ الذين قدموا خدماتهم الجليلة في خدمة الإسلام والمسلمين.

ذكر أ. إياس محمد حرب آل خطاب[1]: إن رواية **علماء الحديث النبوي** كانت تعتمد على السماع أكثر من الكتابة، بينما أصبحت رواية المفسرين تعتمد على الكتب أكثر من كلام المحدِّثين لطول العهد، وعلم الجرح والتعديل تكفل بمعرفة أحوال المحدِّثين لا أحوال الكاتبين. إن كان المحققون قد ذكروا بعض المشهورين من الكتبة وبيّنوا أحوالهم، لما اشتُهر عنهم من أحوال دعت لبيان حالهم، ولكن لا سبيل لحصر الأوراق وما كُتب في مجالس التفسير، إذ أكثر روادها من عوام المسلمين. كما أن الكتب يقع عليها التحريف والتصحيف، ولا مجال لمعرفة الصحيح منها في كثير من الأحيان، لعدم القدرة على معرفة خطوط الكاتبين وإضافاتهم، أما **خطوط** المحدِّثين فقد كانت محفوظة في المكتبات، أو يوجد من هو خبير بها ويستطيع تمييزها عن غيرها من الحواشي، لذلك لم يكن من سبيل لمعرفة الكثير مما روي بخطوط الناس، وقد قال الإمام أحمد: «ومَنْ يَعْرَى من الخطأ والتصحيف؟» **وهذا عند** المحدِّثين، فكيف بمن كتب ولم يكن محدِّثًا، وكيف بمن كتب عمن كتب، ناهيك عما يلحق الصحف من تخريب وتبديل، لطول العهد وتأخر التحقيق فيها، ومثالاً عليها ما يرويه عبدالله بن صالح كاتب الليث عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وابن أبي طلحة هو صاحب صحيفة الوالبي المذكورة في كتب أهل الحديث والتفسير، والتي حدَّث عنها هو صاحب صحيفة الوالبي المذكورة في كتب أهل الحديث والتفسير ، والتي حدَّث عنها الطبري وغيره من المفسرين رغم ما قيل فيها، وقد شكك فيها البعض واحتج بها البعض، والصواب: أنّه لا يحتج بها وإن كان فيها خيرٌ. ثم؛

١- القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، ص ٤٤.

أنّ حب الناس لسماع ما هو غريب، وطلبهم للمزيد في تأويل القرآن، كان من أهم الأسباب لكثرة المرويات الموضوعة مع قلة الصحيح المدون، وهذا واضح في كتب المحققين عند ذكرهم أسباب الكذب في الحديث بشكل عام وفي التفسير بشكل خاص، مما أدى لظهور بعض المفسرين المحبّين للشهرة، المتخذين للكذب والادعاء بمعرفة التفسير طريقًا لهم، فكذبوا بالرواية عن الصحابة، ومثالاً عليها ما أورده الخطيب البغدادي «أنّ مقاتل بن سليمان، جاءه إنسان فقال له: إن إنسانًا سألني ما لون كلب أصحاب الكهف فلم أدر ما أقول له، قال: فقال له مقاتل: ألا قلت هو أبقع فلو قلت لم تجد أحدًا يرد عليك»، وأورد بعدها قول نعيم بن حماد «أول ما ظهر من مقاتل الكذب هذا»، وكذلك ما كان من أمر محمد بن السائب الكلبي، فلا تصح روايته، بل «ما رواه الكلبي لا يحل ذكره في الكتب» وقد تأثر بعض المفسرين بكلام هذا الكذاب وغيره، مع علمهم بحال القوم، ولكنهم وجدوا في بعض كلامهم ما هو خير ولم يتنبهوا لما وراءه. ا. هـ

وجاء في ترجمة ابن الملقن (ت: ٨٠٤ هـ): «رأيت خطوط فضلاء ذلك العصر في طبقات السماع توصفه بالحفظ ونحوه من الصفات العلمية»، وجاء في الدرر الكامنة لابن حجر (٤٤٦/ ٥) في ترجمة محمد ابن القوبع المالكي (ت: ٧٣٨هـ) قال: «ويعرف خطوط الأشياخ»، والمكاتبة والمناولة معروفة في علم رواية الحديث، قال ابن تيمية في بيانها: «ثم المكاتبة يكفي فيها العلم بأنه خطه ولم ينازع في هذا من نازع في كتاب القاضي إلى القاضي والشهادة بالكتابة» من مجموع الفتاوى (٣٤/ ١٨)، وما جاء على لسان العالم المتبحر في علم المخطوطات (خليل الخالدي) من أن خطوط المحدِّثين كانت محفوظة لوقت متأخر في المدرسة الضيائية - نسبة إلى مؤسسها ضياء الدين المقدسي - في دمشق، حتى انتُهبت على يد المغول، وهي المدرسة التي تخرج منها كثير من علماء الإسلام الأفذاذ أمثال: ابن تيمية والذهبي- من كتاب النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (ج ٥، ص ١١٨)[١].

لذا ينقسم الضبط عند المحدِّثين إلى **ضبط صدر وضبط كتاب**، وأن المحدِّث كما يحفظ الحديث في صدره كما سمعه من غير نقصان ولا زيادة، فكذلك ينبغي له أن يحفظ كتابه من التغيير والزيادة والنقصان. ومن الطعون التي توجه إلى كتاب المحدِّث أن يوجد فيه نوع من الكتابة مغاير للخط الذي كتب به سائر الكتاب.

وقد طعن المحدِّثون في ضبط كثير من الرواة نظرًا للتغيير والتصحيف الذي أحدثوه في أصولهم بإقحام خطوط أنكرها حس النقاد، وخبرتهم بمعرفة أنواع الكتابة. قال الذهبي في ترجمة (إسحاق ابن الحسن الحربي): «وثقة إبراهيم الحربي رفيقه والدارقطني. وأما ابن المنادي فقال: كتب الناس عنه ثم تركوه لإلحاقات بين السطور في المراسيل، ظاهرة الصنعة»[٢].

١- آل خطاب، إياس محمد حرب: القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، ص ٤٤.

٢- أسطيري جمال: التصحيف وأثره في الحديث والفقه وجهود المحدِّثين في مكافحته، ص ٤٤٢، دار طيبة للنشر والتوزيع.

أهم مصادر ومراجع الباب التاسع

- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي.
- البغدادي، تقي الدين أحمد بن محمّد بن عليّ المقرئ الأَدَمي الحنبلي: المنور في راجح المحرر، تحقيق د. وليد عبدالله المنيس.
- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض.
- السمعاني، عبدالكريم بن محمد: أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق: أحمد محمد عبدالرحمن.
- الذهبي: أبو عبدالله، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦ هـ، بيروت - لبنان.
- د. موفق بن عبدالله بن عبدالقادر، توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين، ص ٢٣٥، المكتبة المكية.
- التركي، د. تركي: أستاذ السُّنَّة النبوية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، حساب شبكة (التويتر).
- المطيري، عبدالرحمن: كتب أهل الحديث المطبوعة مرتبة على القرون.
- آل خطاب، إياس محمد حرب: القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، مطابع برنتك للطباعة والتغليف - السودان - الخرطوم، ٢٠١١م.
- العوبل، عبدالله: مجموعة من المخطوطات القديمة بخط محدِّثيها.
- جمال، أسطيري: التصحيف وأثره في الحديث والفقه وجهود المحدِّثين في مكافحته، ص ٤٤٢، دار طيبة للنشر والتوزيع.